جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 46 / كانون الاول2025

الإنزالُ والتنزيلُ للقرآنِ الكريمِ عندَ المدوناتِ التفسيريةِ وموقفِ العلامةِ الطباطبائيِّ منها

The revelation and revelation of the Holy Qur'an according to the interpretive texts and the position of Allamah Tabataba'i on them

الدكتور علي عبد اله زاده
Dr. Ali Abdul-Ilah Zadeh
الدكتور محمد رضا ملا نوري
Dr. Mohammad Reza Mulla Nouri
م.م حسن خلف نعيمة الطشاحلة
Hassan Khalaf Naima Al-Tashahleh

جامعة الأديان والمذاهب/ كُلّيَّة العلوم والمعارف القرآنيَّة/ فرع القرآن

University of Religions and Denominations / Faculty of Quranic Sciences and Knowledge / Quran Branch

الكلمات المفتاحية: الإنزال، التنزيل، المدونات التفسيرية، العلامة الطباطبائي.

Keywords: revelation, revelation, interpretive blogs, Allamah Tabatabai.

الملخَّص

الإنزال هو العمليَّة التي جاءت على شكل نزول القرآن الكريم دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ومن ثمَّ على صدر النبيّ الأكرم (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ورأي عدد من العلماء أنَّ القرآن الكريم نزل على النبيّ الأكرم مرَّتين، إحداهما نزل فيها جملة واحدة على سبيل الإجمال، والأخرى نزل فيها تدريجياً على سبيل التفصيل خلال المدَّة التي قضاها النبي في أمَّته منذُ بعثته إلى وفاته (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) أمَّا التنزيل كان على دفعات أو مراحل، وهكذا يكون له علاقة بتدرّج الأحداث أو إرسال الرسالة بشكل متسلسل، في حين أنَّ النزول يشير إلى عمليَّة تامَّة مرَّة واحدة. اصطلاحًا، مفرَّقًا بحسب الوقائع والمناسبات عبر سنوات الوحي. إنَّ عملية التنزيل جاءت لتجيب على حاجات معينة في حياة المسلمين، ممَّا يعني أنَّ فهمنا للقرآن يحتاج إلى إدراك الزمن وسياقاته. وهو بذلك يؤكِّد أن مقاربة النص القرآنيّ بمعزل عن سياقه الزمنيّ قد تؤدِّي إلى تفسيرات خاطئة. هذا التداخل بين التنزيل والزمن هو جوهر رؤية الطباطبائي، إذ إنَّ عدةالتدرّج ليست مجرّد تسهيل لحمل الرسالة بل هي أداة لتأسيس مفهوم النبوَّة والتكليف.

Abstract:

Revelation is the process by which the Holy Quran descended all at once from the Preserved Tablet to the lowest heaven, and then to the Prophet (peace and blessings be upon him and his family). A number of scholars believe that the Holy Quran was revealed to the Prophet (peace and blessings be upon him and his family) twice: once, in a single sentence, in summary form, and once, in a gradual, detailed manner, over the period the Prophet (peace and blessings be upon him and his family) spent with his community from his mission to his death (peace and blessings be upon him and his family). Whether the revelation occurred in batches or stages, thus relating to the progression of events or the sequential transmission of the message, while revelation refers to a complete process at once. Technically, it is dispersed according to events and occasions over the years of revelation. The process of revelation came to meet specific needs in the lives of Muslims, which means that our understanding of the Quran requires an understanding of time and its context. This emphasizes that approaching the Quranic text in isolation from its temporal context can lead to misinterpretations. This interplay between revelation and time is the essence of Tabataba'i's vision, as he considered gradualism not merely to facilitate the transmission of the message, but rather as a tool for establishing the concept of prophethood and obligation.

المقدمة

تعدُّ مسألة النزول والإنزال من أهم المسائل التي يتعرَّض لها المفسرونحينما يشرعونفي تفسير كتاب الله، إذ تعدُّ من أولويات المفسِّرين عند البدء في تفسير النصِّ القرآنيّ، وأنَّ تعريف النزول والتنزيل من الناحية اللغوية والاصطلاحيَّة. النزول في اللغة يُشير إلى "الهبوط" أو "الانتقال من علوّ إلى أسفل" وهو لفظ يستعمل في السياق القرآني للإشارة إلى حركة انتقالية، سواء أكانت فعلية أم معنوية. التنزيل، من جهة أخرى، هو الاشتقاق الذي

يشير إلى عملية "الإنزال على دفعات أو مراحل"، وهكذا يكون له علاقة بتدرّج الأحداث أو إرسال الرسالة بشكل متسلسل، في حين أنَّ "النزول" يشير إلى عملية تامَّة مرَّة واحدة. اصطلاحًا، نجد أنَّ التنزيل عند الطباطبائي يأتي ليعكس هذا التدرّج، فهو يوضِّح أنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر، ومن ثم نزل على النبي محمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مفرَّقًا بحسب الوقائع والمناسبات عبر سنوات الوحي. النزول والتنزيل كظاهرة زمنية، في فلسفة الطباطبائي، يبرز النزول كعملية مترابطة مع الزمن، إذ يرى أنَّ هذا التدرّج في الإنزال لا يشير فقط إلى انتقال النص الإلهي، بل يشير أيضًا إلى مراعاة ظروف وأحوال الأمة الإسلامية في مدة الدعوة. وعلى ذلك الاساس قسم البحث على ثلاثة مباحث، إذ جاء المبحث الأوَّلبعنوان مفهوم النزول والتنزيل في القرآن، أمَّا المبحث الثاني النزول والتنزيل في المدونات التفسيرية، وكان المبحث الثالث مبادئ النزول والتنزيل عند العلامة الطباطبائيّ.

المبحث الأوَّل:النزول والتنزيل في المدوَّنات التفسيريَّة

نزل القرآن بأرقى صور الوحي، وتاريخ نزوله يمثِّل تأريخ القرآن في حياة النبيّ، وهو تأريخ يستغرق ثلاثة وعشرين عاماً هذه الحقبة الذهبية هي تاريخ الرسالة المحمَّدية في عصر صاحب الرسالة، والعناية بها منبثقة عن عناية الوحي بصاحبها، وبحضوره معه، يحملِّه العبء حيناً، ويلقي له بالمسؤولية حيناً آخر، وينزل عليه بآيات الله ﷻ بين هذا وذاك، وكان نزول القرآن مدرَّجاً، وتفريقه منجماً، مما أجمعت عليه الأمة، وصحّت به الآثار الاستقرائية، استجابة للضرورة المُلحَّة، واقتضاء للحكمة الفذة في تعاقب التعليمات الإلهية، يسراً ومرونة واستيعاباً، والذي يهمنا في هذه المرحلة، عطاؤها الإنساني في ضبط النص القرآني، ودقَّة أصوله ووصوله من ينابيعه الأولى، وهو موضوع البحث يكاد أن يتوافر لنا اقتناع نطمئن إليه بأن أوائل سورة العلق: هو أوَّل ما نزل من القرآن[1].

وكذلك هذه الآية الكريمة ((إنَّا نحن نزَّلنا عليك القرآن تنزيلا))[2] تتأمَّل هنا قليلًا في كيفيَّة معنى (التنزيل) ونتحدَّث عن كيفية مجيئه اسما أو صفة للقرآن. التنزيل في اللغة التنزيل مصدر باب تفعيل من مادة (نزل) ويدل على الانتقال من أعلى إلى أسفل... عند القول بنزول الشيء من أعلى إلى أسفل، يتداعى إلى الأذهان عند ذكر هذه الكلمة ترجَّل الراكب من مركبه، ويذكر أيضًا بقدوم الضيف لأنَّهيكون قبل الدخول قد نزل من مركب، قال ابن فارس كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه[3]. يقولون: نزل عن دابَّته، نزل المطر من السماء، وما إلى ذلك النزول الذي يقابل الصعود والعروج يستعمل في المحسوسات تارة، وفي الأمور الاعتبارية تارة أخرى أحيانًا إذا هبط جسم من نقطة عليا إلى مكان أدنى فنحن نسمِّي ذلك نزولا"، وتطلق هذه التسمية أحيانًا على التدنِّي من موقع أعلى إلى موقع أسفل. وأخيرًا تستخدم هذه الكلمة في الأمور الحقيقية غير المحسوسة وهكذا الحال بالنسبة إلى نزول القرآن من لدن الله تعالى على قلب الرسول. حيث إنَّ القرآن تنزَّل من مقام العلم الإلهيّ إلى مرحلة الألفاظ، ليكون مفهومًا لدى الناس. وهكذا عندما يوصف القرآن بهذه الكلمة فذلك يدلُّ على نزوله من مكانة عليا ومن موضع سامق لهداية الناس وإرشادهم وتوعيتهم وكلمة (التنزيل) مشتقة من هذا المصدر أيضًا، وهي تحمل دلالة على القرآن نزل من مكانة رفيعة وسامية الهداية الناس[4]. وقد وردت كلمة (التزيل) لأوَّل مرة

في سورة (يس) التي تقع في المرتبة الواحدة والأربعين من حيث ترتيب النزول، وجاءت كوصف للقرآن: ((يس، والقرآن الحكيم إنَّك لمن المرسلين، على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم))[5] فالصياغة العامة لسورة (يس) تصب في سياق تبيين وإرساء الأصول الثلاثة (التوحيد والنبوة والمعاد)، إذ تبدأ بالحديث عن النبوة وطبيعة هذه الشريعة الإلهية ووحدانية هذا الكتاب الإلهي، وتستمر في الحديث عن التوحيد، ثم المعاد وبعده عودة على الموضوعات المكورة، ثم النتيجة، وما شابه ذلك ومن مجموع الاستخدامات الأربعة عشرة للتنزيل، قالوا: إنَّ خمسة منها جاءت في الأسماء والأوصاف التي أطلقت على القرآن. وعند التدقيق في الآيات وكيفيَّة استخدامها يتسنَّى القول بأنَّ تلك الاستخدامات لا تنحصر في المواضع التالية: الشعراء 192 فصلت 42 الواقعة 56 الحاقة 69 بل نرى أن الاستخدامات الأربعة عشر برمتها جاءت في وصف القرآن، وفي بعض الحالات جاءت مسبوقة بكلمة القرآن الجاثية 2 و...) ويظهر أنَّ التنزيل وصف له، ويدل سياق الكلام على أنَّ المراد هو كتاب الله، و(التنزيل وصف له وعلى هذا الأساس[6]. فقد استخدمت كلمة (التنزيل) للمرة الثانية في سورة (طه) التي تحتلُّ المرتبة الخامسة والأربعين في نزول السور، وهي من السور المكِّيَّة طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلَّا تذكرة لمن يخشى * تنزيلًا ممَّن خلق الأرض والسماوات العلى) وجاءت هذه الكلمة للمرة الثالثة في السورة التي تحتل المرتبة السابعة والأربعين في نزول السور القرآنية، وهي سورة الشعراء، حيث ذهب الباحثون القرآنيون إلى أنَّ هذه الكلمة استخدمت هنا كتسمية قرآنية، وهي سورة الشعراء إذ يذهب الباحثون القرآنيون إلى أنَّ هذه الكلمة استكندية هنا كشفية للقرآن وإذا تقبلنا هذا الرأي تكون سورة الشعراء أوَّل سورة من حيث النزول، وردت فيها كلمة (التنزيل) وصفًا للقرآن وعلى أية حال فإنَّ الغرض العام الذي تهدف إليه هذه الصورة هو بيان المكانة الرفيعة لكتاب الله والتأكيد على أنَّه نازل من الله، وفيها تسلية الرسول[7].

موضوع النزول والتنزيل من أهم الموضوعات التي حظيت باهتمام بالغ في كتب التفسير عبر التاريخ، إذ يعدُّ هذا المفهوم أساسياً لفهم سياق القرآن الكريم وأسباب نزوله، ومن ثَمَّ تفسير معانيه وتوجيهاته. وقد بحث المفسِّرون هذه القضية بطرائق متعددة تبعاً لمدارسهم الفكريَّة ومنهجيَّاتهم في التفسير، ممَّا أسهم في تنوُّع الرؤى حول دلالات النزول والتنزيل وأثرها على فهم النصِّ القرآنيّ. ويهدف هذا المبحث إلى استعراض أهمّ الآراء في كتب التفسير حول النزول والتنزيل، مع التركيز على كيفيَّة استعمال هذه المفاهيم لتوضيح سياق النصوص القرآنيَّة. النزول والتنزيل هما مفهومان أساسيَّان في علم التفسير، إذ يعكسان عمليَّة فهم النصِّ القرآنيّ في سياق الزمان والمكان الذي نزل فيه القرآن. النزول يشير إلى المرحلة الأولى التي فيها بدأ القرآن يتنزَّل على النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، بينما التنزيل هو عملية فهم الآيات في سياقات متعدِّدة بمرور الزمن. إنَّ هذا التفصيل بين النزول والتنزيل يعدُّ أمرًا مهمًّا لفهم القرآن بشكل صحيح، لا سيَّما في المدونات التفسيرية التي توثِّق تفاسير العلماء عبر العصور. المدونات التفسيرية لا تقتصر على جمع تفسيرات القرآن فقط، بل أيضًا تسعى إلى تفسير كيفيَّة نزول الآيات وظروفها التي أُرسلت فيها، ممَّا يسهم في فهم أعمق لمعانيها[8].

أحد أوجه النزول والتنزيل التي نجدها في المدونات التفسيرية هو التأثير الواضح للسياق الزمني والاجتماعي الذي نزل فيه القرآن على تفسير الآيات. فقد كانت بداية نزول القرآن في مكَّة المكرَّمة إذ كان المسلمون في مرحلة

ضعف، ومن ثمَّ انتقل إلى المدينة إذ بدأ المسلمون في بناء مجتمعهم السياسي والاجتماعي. هذا التحوُّل في السياق المكاني والزماني كان له تأثير عميق على التفسير[9].

إنَّ المدونات التفسيرية قد تبحث كيف أنَّ بعض الآيات المكية كانت تركِّز على بناء العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر، في حين كانت الآيات المدنية تُركز أكثر على التشريعات الاجتماعية والسياسية وتتعدُّد المدونات التفسيرية التي تناولت مسألة النزول والتنزيل، ومن أبرز هذه المدونات "الطبري" في تفسيره، إذ يقدِّم تفصيلات دقيقة حول أسباب النزول في العديد من الآيات، ويشرح السياقات التاريخية التي نزل فيها القرآن. على سبيل المثال، يذكر الطبري العديد من القصص التي تتعلَّق بالآيات التي نزلت في معركة بدر أو في سياق الفتوحات الإسلامية. كما أنَّ الطبري يحرص على بيان أنَّ النزول لا يعني بالضرورة الثبات على تفسير واحد، بل يمكن أن يكون مرنًا ومتغيرًا مع تغير السياقات[10].

ومن أهم المدونات التي درست موضوع التنزيل، تفسير "الرازي" الذي يتطرَّق إلى التنزيل في سياقات عقلية وفلسفية أوسع. يشير الرازي إلى أنَّ النزول كان متعلقًا بالحاجة إلى التشريع في مرحلة معينة من تاريخ الأمة الإسلامية، ولكنَّه لا يغفل عن أهمية التنزيل وضرورة تأويل الآيات بما يتناسب مع التغيرات الزمنية. ويرى الرازي أنَّ النصَّ القرآنيَّ لا ينحصر في تفسير واحد، بل يجب أن يكون تفسيرًا مرنًا على وفقالواقع المتغيِّر[11].

وفي المدونات الحديثة، نجد أنَّ مفهوم التنزيل قد أخذ طابعًا أكبر من مجرَّد تفسير النصوص القديمة، ليشمل كيفيَّة تطبيق هذه النصوص في العصر الحديث. على سبيل المثال، نجد في تفسير "الميزان" للعلَّامة الطباطبائيّ كيف يربط بين النزول والتنزيل في إطار فلسفي يستند إلى النظرة الإسلاميَّة للعالم. الطباطبائيُّ يضع في تفسيره للمصطلحات الدينية معاني مرتبطة بالواقع المعاصر، محاولًا معالجة قضايا معاصرة مثل حقوق الإنسان والديمقراطية بناءً على القرآن. في تفسيره، لا يقتصر التنزيل على معاني الآيات التي نزلت في بيئة اجتماعية معيَّنة، بل يتعدَّى ذلك ليشمل تفسيرًا مواكبًا للواقع الحالي، وهو بذلك يقدم نموذجًا معاصرًا لفهم القرآن[12].

إنَّ النزول والتنزيل لا يقتصران على مجرَّد شرح للسياقات التي نزل فيها القرآن، بل يتعدّيان ذلك ليشملا كيفيَّة استنباط الأحكام الفقهية والتشريعية. في هذا الصدد، يعدُّ تفسير "الفخر الرازي" من المدونات التي أسهمت في توضيح العلاقة بين النزول والتنزيل، إذ يرى أنَّ كلَّ آية تحمل في طيَّاتها معاني مختلفة يمكن استخراجها في أوقات مختلفة. الفقهاء يعتمدون على هذا الفهم للتعامل مع مسائل شرعيَّة قد تكون جديدة على المجتمعات الإسلاميَّة المعاصرة[13].

إنَّ أحد المفاهيم الأساسية التي تطرَّقت إليها المدونات التفسيرية عند الحديث عن النزول والتنزيل هو مفهوم "الناسخ والمنسوخ". وقد تناول المفسِّرون هذا الموضوع في إطار النزول والتنزيل إذ إنَّ بعض الآيات نزلت لتنسخ آيات سابقة بناءً على تغير الظروف. هذه النظرية تعرض فهمًا جديدًا للنزول والتنزيل يعكس استجابة القرآن للظروف المتغيرة، إذ إنَّ الشريعة الإسلامية ليست ثابتة في تفسيرها عبر الزمان، بل تتطور بما يتناسب مع الواقع[14].

كما لا يمكن تجاهل تأثير النزول والتنزيل في تفسير مفاهيم أخرى مثل الإعجاز القرآني. وبعض المفسرين يربطون بين النزول والتنزيل من خلال التأكيد على أنَّ المعجزة القرآنية هي في قدرتها على التفاعل مع كلِّ زمان ومكان. فالنزول كان في إطار زمني معيَّن، أمَّا التنزيل فيتمثَّل في القدرة على إحداث التأثير المستمر في العقول عبر العصور. يوضِّح هذا الأمر العديد من التفاسير المعاصرة التي تحاول أن تُظهر كيف أنَّ القرآن كان ولا يزال صالحًا لكلِّ زمان ومكان[15].

من جهة أخرى، نجد أنَّ العديد من المدونات التفسيرية قد درست موضوع النزول والتنزيل في سياق التفسير الأخلاقي. فمن خلال فهم النزول والتنزيل في ضوء الأخلاق، يمكن للآيات القرآنية أن توفِّر إرشادات عملية للإنسان في كيفية التعامل مع القضايا الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة المعاصرة. يعكس هذا التفسير الحي للقرآن كيف أنَّ التنزيل يُمكن أن يتفاعل مع تغيرات الزمن ويوفر حلولًا أخلاقية تتماشى مع تطور القيم الإنسانية[16].

وفي النهاية، يعدُّ النزول والتنزيل في المدونات التفسيرية أمرًا ذا أهمية كبيرة في تفسير القرآن الكريم. فهو لا يقتصر على شرح كيفية نزول الآيات وتفسيرها فقط، بل يتعدَّى ذلك ليشمل فهم كيفية تطبيق هذه الآيات في سياقات زمانية ومكانية مختلفة. المدونات التفسيرية تقدم إطارًا واسعًا لفهم هذه العملية التفسيرية المستمرة، ممَّا يساعد في تجديد الفهم الديني وتطويره بما يتناسب مع تحديات العصر الحديث[17].

مفهوم النزول والتنزيل في كتب التفسير:

يتَّضح أنَّ النزول والتنزيل هما مفهومان أساسيان في فهم القرآن الكريم، ولهما دور كبير في تفسير الآيات القرآنية واستخراج معانيها، وقد وردا بشكل مفصَّل في العديد من كتب التفسير. يعكس هذان المفهومان فهم العلماء لكيفية تفاعل القرآن مع الظروف الزمانية والمكانية في أثناء نزوله، وكيف يمكن تفسير الآيات بناءً على هذه المعايير.

مفهوم النزول:

النزول يشير إلى عملية إبلاغ الوحي من الله تعالى إلى النبي محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويتعلق بظروف وأسباب نزول الآيات. يوضِّح النزول التدرج الزمني للوحي، أي كيف نزل القرآن تدريجيًا على الرسول خلال ثلاث وعشرين سنة. هذه الحقيقة تشير إلى أنَّ القرآن نزل في حقبه معيَّنة من حياة النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، واختلفت هذه الفترات بحسب الظروف التي كان يواجهها النبي والمسلمون. من فهم أسباب النزول، يمكن للعلماء تحديد المقاصد الخاصَّة لكلِّ آية في سياقها التاريخي. على سبيل المثال، يُذكر أنَّ بعض الآيات نزلت في مكة المكرمة، وبعضها نزلت في المدينة المنورة، ولذا فإنَّ معرفة هذا السياق يساعد المفسِّرين في تقديم تفسير دقيق للآيات[18].

مفهوم التنزيل:

أمَّا التنزيل، فيتعلَّق بكيفيَّة تطبيق معاني القرآن في سياقات مختلفة عبر الزمان والمكان. بينما النزول يُظهر كيفية بداية الوحي وتدريجه، فإنَّ التنزيل يركز على كيفيَّة فهم القرآن وتفسيره في الأزمنة اللاحقة؛ التنزيل يتجاوز فكرة الأسباب التاريخية لنزول الآيات ليشمل فهمًا متجدِّدًا للآيات وفقًا للتغيرات التي تحدث في الزمان والمكان. في

كتب التفسير، يُفصل مفهوم التنزيل عبر النظر في كيفية تفسير الآيات القرآنية في العصور المختلفة، وكيف تتماشى تفسيرات الآيات مع واقع المسلمين في كل عصر. التنزيل لا يقتصر على فهم المعنى الظاهر للنصوص، بل يمتد إلى التأويلات المختلفة التي قد تظهر في الأوقات الحديثة استنادًا إلى السياقات الاجتماعية، السياسية، والثقافية التي يمر بها المسلمون. التنزيل يعكس قدرة القرآن على الاستجابة للتغيرات الزمنية وتقديم حلول ومعانٍ تناسب كل فترة[19].

العلاقة بين النزول والتنزيل في التفسير:

العلاقة بين النزول والتنزيل تكمن في أنَّ النزول يحدِّد الإطار الزماني والمكاني الذي نزل فيه القرآن، بينما التنزيل يسمح بتوسيع هذا الفهم ليشمل تفسير القرآن وتطبيقه في الأزمنة المختلفة. كتب التفسير القديمة مثل "الطبري" و"الرازي" تُظهر كيف أنَّ المفسِّرين حرصوا على تفسير الآيات بناءً على أسباب النزول، بينما أظهر المفسِّرون في العصور الحديثة كيف أن التنزيل يمكن أن يكون وسيلة لفهم النصوص القرآنية بشكل مستمرٍ ومتجدِّد. في هذا السياق، نجد أن مفهوم التنزيل يعكس قدرة القرآن على التفاعل مع التحديات المعاصرة وتقديم حلول للأزمات والمشاكل التي قد تواجه الأمة الإسلامية في كل عصر. على سبيل المثال، تفسير "الميزان" للعلامة الطباطبائي يقدم تفسيرًا عقلانيًا يتماشى مع تحديات العصر الحديث ويعكس فهمًا متجددا للنصوص وفقًا للظروف الحالية[20].

التطبيقات التفسيرية لمفهومي النزول والتنزيل:

النزول والتنزيل في كتب التفسير ليسا مجرَّد مفاهيم تاريخية، بل هما أداتان مهمتان في تفسير القرآن في العصر الحديث. ففهم النزول يمكن أن يساعد في تحليل سياق الآيات وسبب نزولها، بينما يعزِّز التنزيل الفهم المستمر للقرآن استجابةً للواقع المعاصر. من هذه التطبيقات التفسيرية، يمكن للمفسِّر أن يتعامل مع القضايا المستجدة في العالم الإسلامي. بهذه الطريقة، يصبح التفسير أكثر من مجرد شرح لآيات القرآن، بل هو عملية حيَّة تسهم في فهم النصوص القرآنية في ضوء التغيرات التي تحدث عبر الزمن[21].

تُفرِّق غالبية المدوَّنات التفسيرية بين مفهوم "النزول" و"التنزيل". إذ يشير "النزول" إلى اللحظة التي يتلقَّى فيها النبي محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الوحي كاملاً في صورة مبدئية، كإنزال القرآن جملةً واحدة في ليلة القدر، على وفق التفاسير. أمَّا "التنزيل" فيعني نزول الوحي تدريجياً، استجابة لمقتضيات الأحداث وحاجة المسلمين للآيات التوجيهية التي تتعلَّق بظروف حياتهم المختلفة. ويُعدُّ هذا التفريق عاملاً مهمًّا لفهم الآيات التي ترتبط بحوادث معيَّنة أو التي تمثِّل إجابات للأسئلة المعروفة من قبل المسلمين أو المعارضين[22].

التفسير بالمأثور ودوره في دراسة النزول والتنزيل:

أعطى التفسير بالمأثور، أو ما يُعرف بالتفسير النقلي، اهتماماً خاصًّا بالنزول والتنزيل، إذ جمع المفسرون الأحاديث والروايات التي توضح أسباب النزول وظروفه. ويرى المفسرون النقليون أنَّ معرفة أسباب النزول ضرورة لتفسير القرآن بشكل دقيق، إذ تُساعد في تجنب الوقوع في اللبس أو إساءة الفهم للنصوص القرآنية. وتعدُّ التفاسير مثل تفسير ابن كثير وتفسير الطبري من أهم المصادر التي اعتمدت على الروايات النبوية وأقوال الصحابة والتابعين لفهم سياق النزول، وهو ما يوضِّح أهمية ربط آيات القرآن بالوقائع التاريخية المحيطة بها، هذا

عند أهل السنة أمَّا عند الأمامية فإنَّ تفسير البرهان وتفسير الصافي يعدَّان من أهم التفاسير الروائية.

النزول التدريجي في التفسير البياني:

يهتم المفسرون الذين يعتمدون على التفسير البياني أو البلاغي بدراسة النزول التدريجي للقرآن، إذ يرون أن هذا التدرج أسهم في ترسيخ القيم والتوجيهات القرآنية في نفوس المسلمين بشكل تدريجي؛ ويُبرز هؤلاء المفسرون كيف أن لغة القرآن ويعرض نمط أسلوبه يعكس هذا النزول التدريجي، ممَّا يعطي للنص القرآني مرونة لغوية وبلاغية تمكنه من التأثير في القارئ والتواصل معه بعمق. وقد اعتمد المفسر الزمخشري في الكشاف على هذا المفهوم لشرح كيفية تطور الأسلوب القرآني بناءً على مراحل النزول، وكيف أنَّ لكلِّ مجموعة من الآيات وظيفة بلاغية وفكرية مرتبطة بواقع نزولها[23].

يمكن القول أنَّ النزول التدريجي للقرآن الكريم يعدُّ من المفاهيمالمهمة في تفسير القرآن البياني، إذ يلعب دورًا أساسيًا في فهم آيات القرآن في سياقاتها المختلفة. في هذا الإطار، يشير مفهوم "النزول التدريجي" إلى أن القرآن الكريم نزل على النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم على مدار 23 عامًا، وليس دفعة واحدة. هذا النزول التدريجي كان له تأثير بالغ في تيسير فهم القرآن وتفسيره على وفق الظروف الزمانية والمكانية التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية.

النزول التدريجي في القرآن الكريم:

النزول التدريجي للقرآن الكريم كان له عدة أهداف بيانية ودعوية. فقد جاء القرآن ليحل مشاكل اجتماعية، ثقافية، وسياسية كانت تواجهها الأمة الإسلامية في بداياتها. وبالنظر إلى هذه الأهداف، نجد أنَّ القرآن كان ينزل بشكل تدريجي ليتناسب مع الأحداث والظروف، بما يعين المسلمين على تطبيق الأحكام القرآنية بشكل عملي وواقعي[24].

النزول التدريجي سمح بتوجيه الأمَّة تدريجيًا نحو الفهم الصحيح للدين وتطبيقه في حياتهم اليومية. وقد بحث بعض المفسرين هذا النزول من زاوية تفسيرية لتوضيح كيف أنَّ القرآن كان يستجيب للأحداث التي كانت تحدث في ذلك الوقت. هذه الاستجابة لا تقتصر على تقديم حكم مباشر، بل قد تتطلَّب تفصيلًا أو تبسيطًا لفهم المتلقين في كل مدَّة من مُدَدِ نزول القرآن[25].

أثر النزول التدريجي في التفسير البياني:

في التفسير البياني، يشير النزول التدريجي إلى كيفية تفسير الآيات في ضوء السياق الزماني الذي نزلت فيه. فالتفسير البياني يعتمد على فهم المقاصد القرآنية عبر تفسير الآيات على وفق الظروف التي نزلت فيها، سواء أكانت ظروفًا اجتماعية، ثقافية، أو سياسية. وهذا الفهم يعتمد على تحديد الأسباب الحقيقية التي أدَّت إلى نزول آية معينة[26].

بناءً على ذلك، نجد أنَّ كثيرًا من المفسرين في تاريخ التفسير الإسلامي ركزوا على تفسير النزول التدريجي وشرح كيف أنَّ القرآن لم يكن فقط كتابًا للأحكام، بل كان أداة لتوجيه الأمة عبر الزمن، بحسب ما يتطلبه الحال. لذا، يعدُّ النزول التدريجي عاملاً أساسيًا في تفسير القرآن الكريم على نحو يتناسب مع مختلف البيئات الثقافية

والاجتماعية. الفهم الصحيح لهذا النزول يساعد المفسرين على تحديد معاني الآيات بشكل أدق ويمنحهم القدرة على تفسير النصوص القرآنية من منظور يشمل الظروف الحية التي كان يعيشها المسلمون[27].

النزول التدريجي وتفسير المعاني:

النزول التدريجي يساعد على تفسير العديد من الآيات التي قد تكون غامضة في البداية بسبب اختلاف السياق الزماني والمكاني. على سبيل المثال، بعض الأحكام التي وردت في القرآن نزلت في مكة، بينما البعض الآخر نزل في المدينة، ممَّا يتطلَّب من المفسِّر أن يأخذ في الاعتبار الفرق بين هاتين الفترتين في تاريخ الإسلام[28].

وبالاعتماد على هذا المنهج البياني في التفسير، يمكن للمفسر أن يعمق فهمه للآيات القرآنية من خلال ربط النصوص بالسياقات التاريخية التي نزلت فيها. على سبيل المثال، يُفهم بعض الأحكام والآيات في سياق الزمان والمكان في مكة بشكل مختلف عن فهمها في المدينة[29].

التفسير البياني للنزول التدريجي

ويشمل التفسير البياني للنزول التدريجي فحص السياقات التاريخية والنفسية التي نزل فيها الوحي. وهذا يتطلب دراسة الأسباب التي أدت إلى نزول الآية، وكيف يمكن فهم المعنى البياني للنص على وفق تلك الظروف. فالتفسير البياني ليس مجرد شرح للألفاظ، بل هو محاولة لفهم السياقات التي نزلت فيها الآيات بشكل دقيق، وكيفية تأثير هذه السياقات على معاني النصوص[30].

في هذا السياق، يشير بعض المفسرين إلى أنَّ تفسير القرآن بالنزول التدريجي يمكن أن يكون أداة لفهم النصوص بشكل ديناميكي، بما يتناسب مع كل عصر وكل مكان. فالآيات التي نزلت في ظروف معينة يمكن أن تعكس استجابة لحاجة معينة في ذلك الوقت، ولكن يمكن أن تحمل أيضًا معاني أوسع تنطبق على التحديات المعاصرة[31].

<u>المبحث الثاني: مبادئ النزول والتنزيل عند العلامة الطباطبائي:</u>

يعدُّ العلامة محمد حسين الطباطبائي من أبرز المفسرين المعاصرين الذين قدموا إسهامات بارزة في مبحث النزول والتنزيل، إذ يعرف منهجه بتداخل الفلسفة وعلم الكلام في تفسير النصوص القرآنية. في تفسيره الميزان في تفسير القرآن، تناول الطباطبائي مفهوم النزول والتنزيل من أسلوب يعتمد على الربط بين السياق التاريخي والوجودي للقرآن، ويؤكد البعد الفلسفي والرمزي للنزول، مما يفتح أبواباً جديدة لفهم النص القرآني بأبعاده المتعددة، النزول والتنزيل هما مفهومان محوريان في تفسير القرآن الكريم، وقد تناولهما العلامة الطباطبائي بشكل موسع في تفسيره "الميزان في تفسير القرآن"، إذ أكّد أنَّ فهم القرآن لا يمكن أن يتم إلَّا إذا تمَّ النظر إلى السياق التاريخي والنزولي الذي نزل فيه الوحي. في هذا الإطار، يميز الطباطبائي بين النزول والتنزيل، ويُظهر كيف أنَّ كلا المصطلحين له دور أساس في تفسير القرآن الكريم وفقًا للسياق الذي نزل فيه الوحي.

الفرق بين النزول والتنزيل:

النزول يعني عملية انتقال الوحي من الله تعالى عبر جبريل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. لكن الطباطبائي يضيف بُعدًا آخر لفهم النزول، حيث يراه مرتبطًا بالزمن والمرحلة التي يمر بها المسلمون. أما

التنزيل، فهو يرتبط بتدريج الآيات في ترتيبها ومواضع نزولها، وهو ما يضمن تطور المعاني القرآنيّة وفقًا لتغيرات الأحداث. التنزيل يشمل كل عملية تنظيم وتنسيق للآيات بحيث تكون متناسبة مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأمة في تلك الفترة[32].

يمكن القول إنَّ مصطلحا "النزول" و"التنزيل" يُستعملان في القرآن الكريم لوصف كيفية نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ويعبر كل منهما عن طريقة خاصة وزمن مختلف لنزول الوحي، مما يساعد على فهم أعمق لديناميكية انتقال الرسالة السماوية. في هذا البحث، سنحاول توضيح الفروق الأساسية بين "النزول" و"التنزيل" من خلال دراسة معانيهما اللغوية والاستناد إلى تفسير المفسرين لآيات القرآن المتعلقة بهما.

1. تعريف "النزول" ومفهومه

كلمة "النزول" في اللغة العربية مأخوذة من الجذر "نزل" الذي يعني الهبوط والنزول من الأعلى إلى الأسفل. في السياق القرآني، "النزول" يشير إلى نزول القرآن بشكل تدريجي على مدى 23 سنة. وقد أشار بعض المفسرين مثل الزمخشري في تفسيره "الكشاف" والطبري في تفسيره "جامع البيان" إلى هذا المعنى، معتبرين "النزول" دليلاً على تنزل الوحي تدريجياً حسب الأحداث والظروف التي مر بها النبي (ص)[33].

2. تعريف "التنزيل" ومفهومه

أما "التنزيل"، فيدل على نزول القرآن دفعة واحدة. ويعبر عن انتقال القرآن الكريم بالكامل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر. وقد أوضح بعض المفسرين مثل ابن كثير والقرطبي هذا المفهوم، إذ ذكروا أنَّ القرآن قد نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا قبل أن يتنزل على قلب النبي محمد (ص) بشكل متتابع. وفي القرآن الكريم، يستعمل مصطلح "التنزيل" للإشارة إلى هذا النزول الكلي والمباشر[34].

3. الفروقات الأساسية بين "النزول" و"التنزيل":

بعد دراسة التحليل اللغوي والتفسيري، يمكن تلخيص الفروقات بين المصطلحين "النزول" و"التنزيل" كما يلي:

طريقة النزول:

يشير "النزول" إلى التنزيل التدريجي للقرآن الذي استمر 23 سنة على وفق الحوادث التي واجهها النبي (ص)، بينما يدل "التنزيل" على نزول القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، يستعمل "النزول" في الآيات التي تشير إلى النزول التدريجي، كقوله تعالى في سورة الفرقان: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً"[35].

بينما يرتبط "التنزيل" بالنزول الكلي للقرآن، مثل قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ"[36].

آراء المفسرين:

4. أمثلة قرآنية توضح "النزول" و"التنزيل"

وردت في القرآن الكريم أمثلة عدة على "النزول" و"التنزيل"، مما يساعد في توضيح دلالتهما: آيات تتعلق بـ "النزول":

قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً".[37] حيث طالب الكفار بنزول القرآن مرة واحدة،

ولكن الله اختار التنزيل التدريجي لحكمته.

آيات تتعلق بـ "التنزيل": قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ"،[38] التي تشير إلى نزول القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا[39].

يظهر من التحليل القرآني والتفاسير المختلفة أنَّ الفرق بين "النزول" و"التنزيل" يتصل بطرائق النزول وزمنه. فـ "النزول" يعبر عن التنزيل المتدرج بينما "التنزيل" يشير إلى النزول الكامل دفعة واحدة. ويعكس هذا الاختلاف جوانب متنوعة من رحمة الله تعالى وحكمته في نزول الوحي.

النزول التدريجي وأثره في التفسير:

ويعد الطباطبائي التنزيل التدريجي أحد أبرز مظاهر الوحي. فكل آية نزلت في وقت معين كان لها تأثير مباشر على الأمة في تلك المرحلة. وهذا التدرج في النزول يعكس الحكمة الإلهية التي تراعي تطور المجتمعات وتغير احتياجاتها. من هنا يمكن ادراك أن تفسير القرآن يجب أن يتم من خلال النظر إلى السياق الزمني الذي نزل فيه، لأنَّ هذا يسهم في فهم المعاني بشكل أعمق[40].

العلاقة بين التنزيل التدريجي والتشريع:

أشار الطباطبائي في تفسيره أن التنزيل التدريجي كان له دور حيوي في تطور التشريع الإسلامي. فالآيات المكية، التي نزلت في مكة المكرمة، كانت تركز على بناء العقيدة وتثبيت أسس الإيمان، بينما كانت الآيات المدنية تعالج القضايا التشريعية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت بعد الهجرة. وهذا يبين كيف أنَّ القرآن الكريم لم يكن كتابًا قانونيًا محضًا، بل هو كتاب جامع يربط بين العقيدة والشريعة والحياة الاجتماعية[41].

التنزيل التخصصي وتأثيره على الأمة:

أوضح الطباطبائي أنَّ التنزيل التخصُّصي يعني أنَّ القرآن الكريم نزل بشكل يواكب الاحتياجات الخاصة للأمة في كلِّ مرحلة. ففي كلِّ مرحلة كان للنزول أهدافه الخاصة، سواء في الحروب أو السلم، سواء في تعليم الناس أو تنظيم حياتهم اليومية. ومن هنا، كان التنزيل القرآني يتفاعل مع الواقع الاجتماعي والسياسي، ممَّا جعل القرآن ليس نصًّا ثابتًا في فهمه، بل نصًّا متجدِّدًا في معانيه[42].

التنزيل التخصُّصي في القرآن الكريم يشير إلى فهم النصوص القرآنية بشكل متخصِّص ومعمَّق، بحيث يبحث كل جانب من جوانب الحياة على وفق احتياجاته الخاصَّة وتحدِّياته، ممَّا يجعل من القرآن كتابًا شاملاً يلبِّي احتياجات الإنسانيَّة على المستويات كافَّة. يأتي هذا المفهوم ضمن تطور فهم العلماء والمفسرين لمعاني القرآن وكيفيَّة تطبيقها في حياة الأمة، خاصة في ضوء الظروف المتغيرة والمتنوعة. التنزيل التخصُّصي لا يقتصر على النظرة الشمولية للنص، بل يتوجَّه إلى تحليل مواضع النزول وفهمها وفق سياقها الشرعي والاجتماعي والسياسي، الأمر الذي يمنح الأمة قاعدة متينة للتعامل مع النصوص القرآنية بشكل يتناسب مع الحاجات المتجددة[43].

على سبيل المثال، يدرس علماء التفسير التنزيل التخصصي في سياق الأحكام الشرعية، إذ يرون أنَّ كلَّ حكم ورد في القرآن جاء لمراعاة مصلحة أو لدفع مفسدة في المجتمع. ولذا، فإنَّ التعامل مع هذه الأحكام من خلال فهم سياقها والغاية منها يعزِّز من إمكانية تطبيقها بمرونة، خاصة في مواجهة تغيرات الواقع. فالأمَّة تحتاج إلى فهم

هذه الأحكام ليس فقط كأوامر ونواهٍ مجرَّدة، بل كمعالجات واقعية لمشكلات قائمة ومتجددة[44]. هذا التحليل التخصصي للنصوص يهدف إلى حماية الأمة من الجمود، ويتيح لها فرصة تطوير اجتهادات تستند إلى أصول راسخة، ممَّا يحافظ على تماسك الأمة الإسلامية ويعزِّز من قدرتها على التفاعل مع مختلف قضايا التنزيل التخصصي كذلك في تكوين فهم عميق للأبعاد الروحية والأخلاقيَّة التي يدعو إليها القرآن، حيث يتَّجه المفسرون إلى تحليل الآيات التي تخاطب الإنسان بصفته فردًا مؤمنًا مكلَّفًا بتزكية نفسه وتطوير علاقته مع الله. هذه النصوص تأتي في سياق الهداية والإرشاد لتغذية الجوانب الروحيَّة، وتجعل الإنسان جزءًا من أمة تستقي من النص القرآني معاني أخلاقيَّة سامية. من هذا المنطلق، فإنَّ الأمة ليست مجرَّد كيان سياسي أو اجتماعي، بل هي كيان روحي يجمع أفرادًا يرتبطون بقيم موحدة. وبهذا، يشكل التنزيل التخصصي أساسًا لتوجيه الأمة نحو التحلِّي بالقيم القرآنية والتأسِّي بمثلها العليا في حياتها اليومية[45].

يبدو أنَّ في الاجتماعي نجد أن التنزيل التخصصي يسهم في ترسيخ مبادئ العدالة والمساواة في المجتمع. فالتنزيل القرآني يقدم حلولاً وإرشادات واضحة لمعالجة قضايا الفقر، والظلم، والعلاقات الأسرية. وهذا يظهر بوضوح في الآيات التي تتناول المواريث، والزكاة، والصدقات، حيث يتناول القرآن هذه الموضوعات بشكل مفصل ويحدد أحكامها بدقة، إنَّ الالتزام بهذه الأحكام وفقًا لتوجيهات التنزيل التخصصي يؤدِّي إلى تحقيق توازن اجتماعي يقي المجتمع من الاضطرابات الاجتماعية، ويعزِّز الوحدة بين أفراد الأمَّة، لأنَّ الجميع يسعى لتحقيق الأهداف ذاتها المبنية على العدل والإحسان، كما ورد في تفسير بعض المفسِّرين مثل القرطبي والطبري. وفي الوقت التنزيل التخصصي يشكل تحدِّيًا للأمَّة الإسلاميَّة عندما تتداخل مصالح الأفراد أو الجماعات مع المبادئ العامَّة المستمدَّة من القرآن. فالاهتمام بالمعاني التخصُّصية للنصوص القرآنية يتطلَّب من الأمَّة ومن علمائها جهودًا متواصلة للتوفيق بين الثوابت والمتغيرات. ومن هنا، نجد أنَّ الاجتهادات الفقهيَّة التي تتبنَّى التنزيل التخصُّصي تأخذ في اعتبارها المتغيرات الزمنيَّة والمكانيَّة، مع الحفاظ على جوهر النص القرآني دون إحداث تحريف فيه، بل سعيًا لتفعيل معانيه بطريقة تضمن ارتباط النص بالواقع وتقديم حلول تتماشى مع مستجدات الحياة.

تجدر الإشارة إلى أنَّ التخصُّصي لا يقتصر على القضايا الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل يمتدُّ ليشمل الجوانب السياسيَّة للأمَّة أيضًا. فقد تضمَّنت النصوص القرآنيَّة إشارات واضحة تتعلَّق بالحكم والعدل، والشورى، والعلاقات الدولية. ويرى بعض العلماء أنَّ هذه النصوص يجب أن تُفهم في إطار النزول التخصُّصي بحيث يتم تفسيرها وتطبيقها بطرائق تتناسب مع متطلَّبات الحكم الصالح والحفاظ على كرامة الأمَّة واستقلالها. إذ ينبغي للأمة، وهي تسعى لتحقيق التنمية السياسية، أن تسترشد بالنصوص القرآنية التي تدعو لتحقيق العدل وتجنُّب الظلم، ممَّا يسهم في بناء نظام سياسي يستند إلى القيم القرآنية ويخدم مصالح الأمة[46].

في الختام، يمكن القول إنَّ التنزيل يشكل أداة قويَّة لفهم القرآن وتطبيقه في حياة الأمة بطريقة شمولية وواقعية. فهذا النوع من الفهم يسمح بتجاوز التفسيرات الضيقة أو الجامدة للنصوص، ويمنح الأمَّة مرونة في التعامل مع التحدِّيات المختلفة، مع الحفاظ على الهُويَّة الإسلامية والقيم الأخلاقية التي يسعى القرآن لترسيخها. ومع استمرار

تطوير فهم التنزيل التخصصي، فإن الأمة الإسلامية ستكون أكثر قدرة على الاستجابة لمتغيرات العصر، وتحقيق التوازن بين المحافظة على الثوابت الإسلامية وتلبية المتطلبات الحديثة.

ويؤكد العلامة الطباطبائي أنَّالنزول والتنزيل وعلاقتهما بالوضع الاجتماعي من المواضيع التي تشكل أساسًا في تفسير القرآن الكريم، إذ إنَّ فهم سياق النزول وأسباب التنزيل يسهمان بشكل كبير في تفسير الآيات وإدراك الغايات التي تهدف إلى تحقيقها. فالنص القرآني، كما ينقل علماء التفسير، لم يأتِ منعزلاً عن واقع المجتمع أو بعيدًا عن هموم الأفراد وظروفهم؛ بل إنَّ كثيرًا من الآيات جاءت لمعالجة قضايا مجتمعية عينية، ولإصلاح أعراف وتقاليد كانت سائدة في المجتمع العربي حينها. من هنا، يُعدّ فهم هذه العلاقة بين النزول والتنزيل والوضع الاجتماعي بمثابة المفتاح الذي يُسهم في الربط بين الأحكام القرآنية وبين احتياجات المجتمعات وتطوراتها[47].

من الجوانب المهمَّة في علاقة النزول والتنزيل بالوضع الاجتماعي تتعلَّق بالأعراف والتقاليد التي كان يعيشها المجتمع العربي قبل الإسلام. لقد جاء القرآن بعد فترة طويلة من الجمود الثقافي والاجتماعي، إذ كانت المجتمعات العربية تعاني من عادات وأعراف غير متوازنة، مثل وأد البنات، وانتشار العصبيات القبلية، وغياب الحقوق الإنسانية في كثير من المجالات. جاءت الآيات التي تخاطب هذه القضايا بشكل تدريجي، بهدف التغيير الاجتماعي السلس والمبني على التوجيه الإلهي دون الصدام مع الأعراف السائدة. ومن هنا، فإنَّ "النزول التدريجي"يُعدُّ عنصرًا أساسيًا لتحقيق الإصلاح الاجتماعي، بحيث يتم من خلاله تصحيح المفاهيم والمعاملات الاجتماعية وفقًا لرؤية إلهية شاملة، وهذا يتضح في قوله تعالى: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"[48]، وهي إحدى الآيات التي تندِّد بعادات جاهلية سائدة وتدعو للتغيير التدريجي[49].

هذا التأثير يمتد إلى الأحكام الاقتصادية في المجتمع، إذ يُلحظ أنَّ كثيرًا من الآيات نزلت للتنبيه على أهمية الإنفاق والعدالة الاجتماعية، وإزالة الطبقية، مما يسهم في بناء مجتمع متماسك ومتكافل. على سبيل المثال، نزلت الآيات التي تحض على الزكاة والصدقة من أجل تقليص الفجوات الطبقية، كما في قوله تعالى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا"[50]، فمثل هذه النصوص لم تأتِ في فراغ، بل جاءت لتلبية حاجة اجتماعية ملحة تهدف إلى تحقيق التكافل الاجتماعي[51].

أمَّا عند تناول قضايا الأسرة والمرأة، نجد أنَّ النصوص القرآنية ركزت على إنصاف المرأة في مجتمع كان يغلب عليه طابع الذكورية، إذ تميزت بعض الآيات بكونها إعادة تقييم لمكانة المرأة ومشاركتها في المجتمع. هذا التوجُّه في النزول القرآني يظهر جليًّا في آيات الميراث والزواج والطلاق، التي جاءت لتضع قواعد تنظِّم العلاقات الأسرية وتؤسِّس لمجتمع يسوده العدل في الحقوق والواجبات. وتُعدُّ هذه الأحكام نقلة نوعيَّة في الوضع الاجتماعي للمرأة، حيث ارتقت بها من مكانة العدم إلى مكانة المساواة، كما في قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ"[52]، إذ وضح الله حقَّ المرأة في الإرث بما يتوافق مع كرامتها وحقوقها[53].

التعامل مع النزاعات الاجتماعية هو أيضًا من الجوانب التي تجلَّت فيها علاقة النزول والتنزيل بالوضع الاجتماعي. في مجتمع كان يعرف كثيرًا من الفتن والنزاعات القبلية والعائلية، نزلت آيات تدعو إلى الصلح

والتسامح بين الأفراد والجماعات، ممَّا يعزِّز الوحدة والتكافل داخل الأمة الإسلامية. ففي سياق النزاعات، دعا القرآن إلى العفو والتسامح، وأكَّد على فضل الصلح كقيمة مجتمعيَّة تسهم في الاستقرار، إذ قال تعالى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ"[54]، وهي دعوة جاءت تلبية لحاجة اجتماعية تدعو إلى السلم والتلاحم بين الأفراد والمجتمعات[55].

يبدو واضحاً أنَّ للنزول والتنزيل تأثيراً واضحاً على تكوين النظام السياسي في المجتمع الإسلامي، حيث توجهت النصوص القرآنية إلى ترسيخ مفاهيم العدل والشورى، وأرست قواعد أخلاقية لإدارة المجتمع وحكمه، كالعدل والمساواة، وهي مفاهيم تهدف إلى تقويم البنية السياسية بشكل يتماشى مع قيم الشريعة. على سبيل المثال، جاء قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ"[56] لتوجيه الحكام إلى ضرورة العدل وتطبيقه، مما يعزِّز من وحدة المجتمع واستقراره، وختامًا، فإنَّ علاقة النزول والتنزيل بالوضع الاجتماعي هي علاقة تتجاوز الجانب التفسيري إلى الدور العملي الذي تسهم فيه هذه الآيات في إصلاح المجتمع وتوجيهه نحو الرقي والتقدُّم، ويظل النص القرآني مرجعًا للمجتمعات الإنسانية التي تجد في كلِّ آية تلبية لاحتياجاتها المتجددة، كما يبقى التفسير الاجتماعي للنزول والتنزيل مدخلاً جوهريًا لفهم المقاصد الإلهيَّة والعمل على تطبيقها بما يحقِّق الفائدة للمجتمع والأمَّة.

تنزيل القرآن حسب الحاجة:

يرى السيد الطباطبائي أنَّ الحوادث والأحداث التي حصلت أيام الدعوة، وكذلك القضايا الضرورية من الأحكام الإسلامية وقوانينها، كانت السبب في نزول كثير من السور والآيات، وأن المعرفة الدقيقة لهذه الأسباب تساعد بشكل كبير على معرفة دلالة الآيات والسور، وما فيها من دقائق المعاني والأسرار[57].

تنزيل القرآن وعلاقته بالتفسير:

بناءً على هذه المبادئ، أكَّد الطباطبائي أنَّ التفسير الصحيح للقرآن لا بدَّ أن يستند إلى فهم تام لعملية النزول والتنزيل. فالنزول يشير إلى لحظة الوحي، بينما التنزيل يشير إلى الطريقة التي تم بها تنظيم الآيات وتفسيرها عبر الزمن. ومن هنا، فالتفسير القرآني يعتمد على معرفة السياق الزمني والحدث الذي نزلت فيه الآيات لتكون عملية التفسير أكثر دقة وواقعية.

تنزيل القرآن الكريم يرتبط بشكل وثيق بعملية التفسير، إذ يشكِّل فهم معانيه وأبعاده المختلفة الأساس لتوجيهات الشريعة ومفاهيم الدين، وتوضح العلاقة بين التنزيل والتفسير تلك المنهجية التي اتبعها العلماء والمفسرون لاستنباط الأحكام وتوضيح المفاهيم القرآنية. يُعدُّ التنزيل في جوهره عمليَّة متدرجة، ترتبط بحكمة إلهيَّة تهدف إلى تأكيد الفهم التدريجي للآيات، وتسهيل تقبلها وامتثال الناس لتعليماتها، ويتَّضح ذلك في مواضع عديدة من النص القرآني، إذ يوضِّح العلماء بأنَّ التنزيل كان يتم وفقًا للأحداث والظروف، ممَّا يرسخ قيمه وأحكامه في قلوب المسلمين تدريجيًا ويسهم في فهم أعمق للنصوص[58].

أحد الجوانب الأساسية في العلاقة بين التنزيل والتفسير هو إدراك أنَّ كلَّ آية نزلت في سياق معيَّن، وأنَّ هذا السياق يساعد في فهم المعنى الأعمق لها. فالآيات القرآنية كانت تتنزل وفقًا لاحتياجات المجتمع المسلم في

فترات مختلفة، وتلبيةً لاستفساراتهم أو إرشادًا لحلول معضلاتهم. في هذا السياق، يشير العلماء إلى أنَّ فهم أسباب النزول يسهم في فهم مقاصد الآيات، ويتيح للمفسِّر تفادي سوء التأويل أو إسقاط الأحكام دون مراعاة ظروف النص، كما يؤكِّد الطباطبائي، حيث يرى أنَّ مقاربة النص بظروفه التاريخية والاجتماعية تسهم في رفع مستوى التفسير إلى إدراك أعمق وأشمل لمعانيه[59].

التنزيل القرآني كذلك يُبرز أهمية التدرج في التشريع، وهو مفهوم له انعكاسات واسعة في التفسير. كثيرٌ من الأحكام لم تُشرع دفعة واحدة، وإنَّما جاءت بشكل متتابع ومتناسب مع قدرة الناس على التكيف معها. على سبيل المثال، نزلت آيات تحريم الخمر على مراحل، حيث بدأ بتوجيهات غير مباشرة تدعو لتجنب آثاره الضارة، إلى أن نزل التحريم الكامل. هذا التدرج في التشريع يؤكِّد أهمِّيَّة الفهم المرحلي للنصوص، وبالتالي دور التنزيل في رسم نهج عملي ومرن للتفسير، ما يتيح للمفسرين إدراك أهمية تتابع الأحكام ومواكبتها للتحولات الاجتماعية[60].

من جانب آخر، فإنَّ التنزيل يُعدُّ مكوِّنًا أساسيًا في صياغة التفسير البياني للقرآن، إذ يفسِّر المفسرون الآيات بناءً على ترتيب نزولها وفهم العلاقة بينها، مما يوفر إطارًا لفهم التدرج في النص القرآني، هذا المنهج يساعد في تكوين صورة شاملة عن الأحكام والقيم التي يريد القرآن غرسها. ففهم التدرج والتسلسل الزمني للنزول يمنح المفسر خلفية تاريخية تساعد في وضع الآية في سياقها الأصيل، وهو ما اعتمده الطباطبائي وغيره من العلماء في التأكيد على أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل التنزيل لها دور في بناء الرسالة الإسلامية على نحو منسجم يتناسب مع نمو المجتمع واستيعاب الناس لأحكام الدين تدريجيًا[61].

إنَّ عمليَّة التنزيل المتسلسلة أسهمت في بناء وعي إيماني لدى المسلمين، إذ إنَّ التدرُّج في النزول يسمح للمتلقِّين بفرصة للتأمُّل والتدبُّر، وهو ما يعزِّز فهم النصوص وتطبيقها بصورة سليمة. كان هذا البعد النفسي للتنزيل جزءًا من الحكمة الإلهيَّة التي تعزِّز من فاعلية التفسير وتزيد من استيعاب الآيات بشكل أفضل. فعندما نزلت الآيات تلبية لاحتياجات معيَّنة، فقد كان ذلك يعمق فيهم اليقين، ممَّا يجعل التفسير متماشيًا مع فهم صحيح للأسباب التي دعت إلى التنزيل ويضفي وضوحًا على كيفيَّة التطبيق في الحياة اليومية[62].

فضلًا عن ذلك، يرتبط التفسير اللغوي أيضًا بعلاقة وثيقة بالتنزيل، إذ إنَّ فهم دلالة الكلمات والمصطلحات القرآنية يعتمد على السياق اللغوي والزمني للآيات. وقد اعتمد المفسرون على التنزيل لتحديد دلالات معينة لكلمات تكررت في عدة مواضع قرآنية، والتي يمكن أن تختلف معانيها بحسب سياق التنزيل. فعلى سبيل المثال، فإنَّ مفهوم "الظلم" في القرآن يحمل عدَّة دلالات تتفاوت بين الشرك والاعتداء وحرمان الحقوق، ويظهر دور التفسير هنا في كشف هذه المعاني المختلفة وتحديدها حسب السياق الذي تنزلت فيه الآيات. ولولا فهم التتابع في التنزيل لاختلطت الدلالات وأصبح من الصعب تحديد المراد من كلِّ آية[63].

ختامًا يتَّضح أنَّ عمليَّة التنزيل لم تكن مجرَّد نقل للنصوص القرآنية، بل كانت عملية منهجية تراعي الاحتياجات المجتمعيَّة والنفسيَّة واللُّغويَّة للناس، ممَّا يجعل التفسير القرآني عمليَّة ديناميكية قائمة على فهم سياقات النزول والغرض من كلِّ جزء من أجزاء النص. كان ذلك النهج هو ما اعتمده الطباطبائي وغيره من المفسرين، ما أسهم

في خلق مرونة في التفسير، ممَّا ساعد في مواكبة التفسير للمتغيرات الزمانية والمكانية وإيجاد مرجعية متكاملة لمعالجة قضايا المجتمع.

تعريف النزول والتنزيل عند الطباطبائي:

يرى الطباطبائي أنَّ "النزول" هو الانتقال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حيث ينزل القرآن دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ومن ثمَّ يتم "التنزيل" بشكل متدرِّج وفقاً للأحداث والوقائع التي وقعت في حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. بهذا، يُميِّز الطباطبائي بين النزول الكلِّي الذي يعبِّر عن كامل الوحي الإلهي والنزول التدريجي[64].

يمكننا تعريف "النزول" و"التنزيل" عند العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، من رؤيته العميقة في تفسير "الميزان في تفسير القرآن". ففيه، أظهر نظرة فلسفية وعقلانية تتناول مفهومَي النزول والتنزيل بشكل مغاير للمفهوم التقليدي السائد.

النزول في اللغة يُشير إلى "الهبوط" أو "الانتقال من علوّ إلى أسفل" وهو لفظ يستعمل في السياق القرآني للإشارة إلى حركة انتقالية، سواء كانت فعلية أو معنوية. التنزيل، من جهة أخرى، هو الاشتقاق الذي يشير إلى عملية "الإنزال على دفعات أو مراحل"، وهكذا يكون له علاقة بتدرّج الأحداث أو إرسال الرسالة بشكل متسلسل، في حين أنَّ "النزول" يشير إلى عملية تامة مرة واحدة.، نجد أن التنزيل عند الطباطبائي يأتي ليعكس هذا التدرّج، فهو يوضح أنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر، ومن ثم نزل على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مفرقًا حسب الوقائع والمناسبات عبر سنوات الوحي[65].

الخاتمة

يعدُّ الطباطبائي النزول والتنزيل مبحثين أساسيين لفهم النص القرآني بشكل متكامل، إذ يُبرز التدرج في الوحي كوسيلة إلهية لتربية المؤمنين وصياغة مجتمع إسلامي يتسم بالوعي والتفاعل مع مقاصد الدين. ويبرز تفسير الطباطبائي من هذه المفاهيم على منهجية عقلانية تأملية، تجمع بين التاريخ والعقل والفلسفة، مما يتيح فهماً شاملاً للنص القرآني يرتبط بالوجود الإنساني وعلاقته مع الله سبحانه عبر أبعاد مختلفة. من هنا نستنتج أنَّ العلَّامة الطباطبائي قد أوضح بشكل جلي أهمية النزول والتنزيل كما أشرنا في هذا البحث. وكذلك أخذنا رأي بعض المفسرين في مبحث التنزيل والانزال.

الهوامش:

1- الصغير محمد حسين، تاريخ القرآن، ص35، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

2- الانسان/ 23

3- الصدر محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص221، ط4، شريعة قم، قم المقدسة.

4- معرفة محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، ج1، ص155، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

5- يس/1-4

6- الحكيم محمد باقر، علوم القرآن، ص27،ط7، شريعة قم، قم المقدسة.

7- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص43، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
8- الصغير، المصدر السابق، ص36.
9- الزنجاني أبو عبد الله، تاريخ القرآن، ص59، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
10- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص 15-36، دار المعارف، القاهرة.
11- الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ص 234-256دار إحياء التراث العربي، بيروت.
ص 234-256
12- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن،ص 45-58 دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
13- الرازي، المصدر السابق، ص 112-125
14- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ص 76-89 دار الكتاب العربي، بيروت.
15- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص150، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، 2007.
16- الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن،ص 155-172، دار المعارف، بيروت.
17- عبد الله بن سعيد، التفسير والفكر الإسلامي، ص 202-215،دار الجيل .
18- الطبري، المصدر السابق،ص115.
19- الرازي، المصدر السابق،ج3، ص 180
20- الطباطبائيالمصدر السابق: ج10، ص 195
21- السيوطي،المصدر السابق، ج6، ص 220.
22- الزمخشري، المصدر السابق: ج2، ص 76.
23- الزمخشري، المصدر السابق، ج3، ص 156
24- الطباطبائي، المصدر السابق، ص 142
25- القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص 45،مؤسسة الرسالة، بيروت.
26- الخوئي، المصدر السابق،: ص 121.
27- الباقر محمد علي، القرآن والعصر: دراسات في الفكر القرآني، ص 55، دار الفكر، دمشق، (2012).
28- البروجردي محمد، دراسات في تفسير القرآن، ص 88، طهران، مؤسّسة الكتب العلمية، 2004.
29- الطباطبائي، المصدر السابق، ص 78.
30- الفخر الرازي، المصدر السابق، ص 222
31- السبحاني، جعفرالتفسير الفقهي للقرآن، ص 68، مكتبة الإمام الصادق قم،(2008.
32- الطباطبائي، ج 3،المصدر السابق، ص 125.
33- الزمخشري، المصدر السابق، ج 1، ص 85.
34- القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 125، دار الكتب العلمية، بيروت.
35- الفرقان/ 32
36- القدر/ 1
37- الفرقان/ 32
38- القدر/ 1

39. ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 490، دار الكتب العلمية، بيروت، (1998).
40 . الشيرازي، المصدر السابق، ج3، ص 92.
41 . الخوئي، المصدر السابق، ص 154.
42 . السبحاني، المصدر السابق، ص 143.
43 . الرومي فهد بن عبد الرحمن. خصائص القرآن، ص195، ط3، رئاسة البحوث العلمية، الرياض.
44. الطبرسي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج1، ص497، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
45. الرازي عبد الرحمن بن ابي حاتم، تفسير ابي حاتم، ج6، ص44، دار الكتاب العلمي، بيروت، 2006.
46. السبحاني، المصدر السابق، ص 143.
47. الثعلبي محمد بن إبراهيم، تفسير الكشف والبيان، ج3، ص479، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
48. النحل/ 58
49. ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ص 223، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
50. التوبة/ 103
51. القرطبي، المصدر السابق، ص 17.
52. النساء/ 7
53. الرازي، المصدر السابق، ص 265.
54. الأنفال/ 1
55. الزمخشري، المصدر السابق، ص45.
56. النساء/ 58
57. الطباطبائي، المصدر السابق، ج3، ص123.
58. ابن برجان عبد السلام بن عبد الرحمن، تفسير بن برجان، ج3، ص257، مطبعة المصور العربي، الإسكندرية.
59. الطباطبائي، المصدر السابق، ص 124.
60. القرطبي، المصدر السابق، ص 78.
61. الرازي، المصدر السابق، ص 203.
62.الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ص 340، دار الفكر،، بيروت، 1973.
63. ابن عاشور، المصدر السابق، ص 56.
64. الطباطبائي، المصدر السابق، ج1، ص43.
65. الصالح صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص52، ط2، دار قتيبة، بيروت.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الصغير، محمد حسين، تاريخ القرآن، ص35، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
3. الصدر محمد باقر، المدرسة القرآنية، ط4، شريعة قم، قم المقدسة.
4. معرفة محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، ج1، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
5. الحكيم محمد باقر، علوم القرآن، ص27،ط7، شريعة قم، قم المقدسة.

6. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
7. الزنجاني أبو عبد الله، تاريخ القرآن، ص59، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
8. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعارف، القاهرة.
9. الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
10. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ص 45-58،ج3 دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
11. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت.ج1،ص75.
12. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، من إصدارات وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، 2007.
13. الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن، دار المعارف، بيروت.
14. عبد الله بن سعيد، التفسير والفكر الإسلامي، دار الجيل .
15. القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت.
16. الباقر محمد علي، القرآن والعصر: دراسات في الفكر القرآني، دار الفكر، دمشق، 2012.
17. البروجردي محمد، دراسات في تفسير القرآن، طهران، مؤسّسة الكتب العلمية، 2004.
18. السبحاني، جعفر التفسير الفقهي للقرآن، مكتبة الإمام الصادق، قم، 2008.
19. القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت.
20. ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
21. الرومي فهد بن عبد الرحمن. خصائص القرآن، ط3، رئاسة البحوث العلمية، الرياض.
22. الطبرسي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج1، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
23. الرازي عبد الرحمن بن أبي حاتم، تفسير أبي حاتم، ج6، دار الكتاب العلمي، بيروت، 2006.
24. الثعلبي محمد بن إبراهيم، تفسير الكشف والبيان، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
25. ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
26. ابن برجان عبد السلام بن عبد الرحمن، تفسير ابن برجان، ج3، مطبعة المصور العربي، الإسكندرية.
27. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار الفكر،، بيروت، 1973.
28 . الصالح صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط2، دار قتيبة، بيروت.